مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية
المجلد42 العدد (3) – 2026: 219- 234

Damascus University Journal for engineering sciences
Vo 42 number (3) -2026: 219-234

الغروتسك في فن النحت خلال العصور الوسطى – الأعمال النحتية في كاتدرائية شارتر أنموذجاً

سـهى حسـن[1*] سمير رحمة[2]

[1*] طالبة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، قسم النحت.
suha1.hassan@damascusuniversity.edu.sy
[2] الأستاذ الدكتور المشرف، جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، قسم النحت.
s-rahmeh@scs-net.org

الملخص:

تهدف هذه الدراسة البحثية إلى التعريف بمفهوم الغروتسك كواحد من أهم المفاهيم الفلسفية التي برزت في علم الجمال، فبالرغم من أن هذا اللفظ يعود إلى العصور الرومانية القديمة، إلا أنه عاد للظهور نتيجة التغيرات التي طرأت على المفهوم الجمالي منذ أن تحرّر الفن من سيطرة الكلاسيكية ومعاييرها الثابتة ولاسيما في بداية القرن العشرين، كما ويتناول البحث بعض الأعمال النحتية في العصور الوسطى الموجودة في كاتدرائية شارتر على وجه التحديد، والتي حملت خصائص الغروتسك، ويتم الاستدلال على ذلك من خلال إسقاط هذه الخصائص على الأعمال النحتية وتحليلها للوصول إلى النتائج المرجوة.

الكلمات المفتاحية: الغروتسك، فن النحت، العصور الوسطى، كاتدرائية شارتر.

تاريخ الإيداع: 2023/9/15
تاريخ القبول: 2024/1/3

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب CC BY-NC-SA

http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index
ISSN (online): 2789-6854

The Grotesque in Middle Ages Sculpture – Chartres Cathedral sculptures as Samples

Suha Hassan*[1] Sameer Rahmeh[2]
*[1.] PHD student in, Damascus University, Faculty of Fine Arts, Sculpture department.
suha1.hassan@damascusuniversity.edu.sy
[2.] Prof. in Damascus University, Faculty of Fine Arts, Sculpture department.
s-rahmeh@scs-net.org

Received: 15/9/2023
Accepted: 3/1/2024

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Abstract:

The aim of this research is to identify the Grotesque concept as one of the essential philosophy concepts which emerged in aesthetics. Although the concept was originated in the ancient Roman era, it re-emerged as a result of the changes aestheticism underwent since the Art liberated from Classicism domination and its unchanged criteria especially at the beginning of the 20th century. The research discusses some middle-ages sculptural samples also, such as the ones in Chartres Cathedral which are characterized by Grotesque elements. However, proving the research is by analyzing these sculptural works as well as applying Grotesque elements to them.

Keywords: The Grotesque, The Sculpture, The Middle Ages, Chartres Cathedral.

المقدمة (Introduction):

طرأ تغيّر كبير على المفهوم الجمالي خلال مراحل تاريخ الفن، فبعد أن دام تأثير المفهوم الكلاسيكي للجمال مدة طويلة ظهرت في نهاية عصر النهضة تيارات تدعو إلى تحرر الفنون من سيطرة الكلاسيكية ومعاييرها الثابتة وصولاً إلى العصر الحديث الذي رسم طريقاً جديداً للفن خارج إطار المحددات الأكاديمية وذلك بفعل تيارات فنية عملت على تعزيز مفهوم الفردية والحرية الفنية، كل هذه المستجدات أدت إلى ظهور مفاهيم ونظريات جمالية جديدة كبدائل عن غياب المعايير الجمالية الكلاسيكية، والتي تتنوع وتختلف وحتى تتعارض أحياناً، إلا أنها تتناسب مع الفكر الحداثي. ومن هذه المفاهيم برز (الغروتسك) الذي نجده شائعاً في الأعمال الأدبية، إلا أن العديد من الفنانين اعتمدوا على خصائصه في خلق أعمال تحمل دلالات وأبعاداً فلسفية وتلبي الحاجة الجمالية بالمنظور الحداثي.

ولكن هل ينطبق ذلك على بعض الأعمال الفنية على مر العصور وخاصة العصور الوسطى؟ هذا ما سوف نستنتجه من خلال دراسة وتحليل خصائص الغروتسك وإسقاطها على بعض النماذج من كاتدرائية شارتر، ولاسيما تلك الأعمال التي تبعث على الخوف والرعب مثل الشياطين والوحوش، فهل من الممكن أن تحمل نفس الدلالات أم أنها تغيرت بتغير الزمان والعصر والمجتمع؟

مشكلة البحث:

– هل للغروتسك شكلاً ثابتاً أم أنه خاضع لتحولات وتداعيات العصر والبيئة والثقافة التي ينتمي لها؟

– هل تحمل بعض الأعمال النحتية في العصور الوسطى صفة الغروتسك ولماذا؟

– كيف تم توظيف الغروتسك في تماثيل الكنائس في العصور الوسطى وما السبب وراء ذلك؟

– لمفهوم الغروتسك في العصر الحديث أبعاد ودلالات فلسفية، هل ينطبق هذا الكلام على الغروتسك في العصور الوسطى أم ان ذلك كان لغاية وظيفية أم رمزية بحتة؟

الفرضيات:

تفترض الباحثة أن:

الغروتسك مفهوم يشمل أشكالاً ودلالاتٍ مختلفة، فقد اختلفت الغاية من تجسيده على مر العصور، وكان للممارسات الاجتماعية والثقافية والدينية المختلفة دوراً كبيراً في ذلك.

وُظف الغروتسك في فنون العصور الوسطى من خلال تماثيل جسدت مخلوقات هجينة أو مرعبة ومنفرة.

بعض أشكال الغروتسك الوحشية في فن النحت خلال العصور الوسطى كان لها غاية وظيفية والبعض الآخر أخذ منحىً زخرفياً.

المسلمات:

طرأ تغيير كبير على المفهوم الجمالي وذلك بعد أن تحرر الفن من قيوده في نهاية عصر النهضة وصولاً إلى عصرنا الحالي.

الغروتسك كان من ضمن المفاهيم الفلسفية التي برزت في طروحات ما بعد الحداثة وكان لذلك تأثيراً على الأعمال الفنية.

هدف البحث:

يهدف هذا البحث الى دراسة مفهوم الغروتسك وخصائصه ومن ثم إسقاط هذه الخصائص على الأعمال النحتية في العصور الوسطى لنتبين فيما إذا كانت هذه الأعمال تحمل الصفة الغروتسكية، واستنتاج الغاية منها والدلالات التي تشير إليها.

الأهمية:

تكمن أهمية البحث في:

التعريف بمفهوم الغروتسك كواحد من أهم طروحات ما بعد الحداثة، وكيف شكلت هذه الظاهرة مصدراً بصرياً ملهماً للفنانين لتجسيده في أعمالهم.

http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index
ISSN (online): 2789-6854

– إثبات كيف تغيرت الغاية من تجسيده بتغير الزمن والبيئة والثقافة وذلك من خلال دراسة نماذج من العصر الحديث ومن العصور الوسطى.

– تسليط الضوء على بعض الأعمال النحتية في العصور الوسطى التي اتصفت بخصائص الغروتسك وخاصة تلك الموجودة في كاتدرائية شارتر.

الحدود: الزمانية العصور الوسطى.

المكانية كنيسة شارتر في فرنسا.

المنهج: المنهج الوصفي التحليلي.

محاور البحث:

أ. مفهوم الغروتسك.

ب. خصائص الغروتسك.

ج. فن النحت في العصور الوسطى.

د. الغروتسك في منحوتات كنيسة شارتر.

الدراسات المرجعية (Literature Review):

أ– مفهوم الغروتسك Grotesque

يمثّل الغروتسك أحد المفاهيم الجمالية الفلسفية التي برزت ضمن طروحات ما بعد الحداثة، ويُقصد به الدرجات المتطرفة من القبح والتنافر والتضخيم والشذوذ والتباين والتناقض، حيث أن "السمة الأساسية للغروتسك هي (التناقض الذاتي self-contradiction)، ففي الفن والأدب يجمع بين العناصر المتنافرة دون الانحياز لأحدها وذلك من خلال عدم الانسجام أو الترابط الظاهري، جامعاً بذلك بين مشاعر الاشمئزاز وبنفس الوقت الانجذاب" (Meindl, 1996, 18).

وقد دخل في العصر الحديث ضمن التصنيفات الجمالية وحمل بعداً فلسفياً وتم طرحه ضمن قراءة جديدة للقيم الجمالية، حيث توسّع المعنى واستخدمت الكلمة في علم الجمال كصفة أو طابع لكل ما هو غير منتظم ويتصف بالغرائبية ولكل ما هو هزلي ويُضحك من خلال المبالغة والتشويه ويتناقض مع ما هو سامٍ ورفيع، أي التمرد على المألوف وعلى الجمال المثالي.

يعرّفه وهبة (1974) بأنه: "صفة الفن الزخرفي الذي يصور أشكالاً بشرية وحيوانية غريبة مختلطة بكائنات خيالية ورسوم وأوراق نباتية الأمر الذي يوحي بشعور من البشاعة أو السخرية من توليفة لا تخضع لقواعد الممكن ولا لتصورات العقل... هو خيالي بشع يتمثل في الأدب صفة لأسلوب النشاز المسرف في الخيال" (95).

إلا ان استخدام لفظ الغروتسك في الفنون البصرية يمكن إرجاعه إلى الحضارة الرومانية فقد تم اكتشافه على جدران الكهوف والأبنية الرومانية خلال الحفريات الأثرية التي أجريت في نهاية القرن الخامس عشر، حيث " تأتي كلمة غروتسك من الكلمة الإيطالية la grottesca و il grottesco لوصف الرسوم والزخارف المكتشفة على جدران الكهوف في بومبيي Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum" (Uruburu, 1987, 7)، وقد جمعت هذه الرسومات بين الأشكال النباتية والحيوانية والبشرية بطرق غريبة وغالباً لتنذر بالخطر، ومهدت الطريق لأشكال أخرى من الغروتسك فيما بعد تجمع بين العناصر المتباينة والمتضاربة.

وقد مرّ هذا المصطلح بتحولات كثيرة في مجالي الأدب والفن خلال مساره الزمني، لأنه يخضع لاعتبارات عديدة ومنها ثقافة المجتمع والحقبة الزمنية ومخيلة المبدع، كل ذلك أدى إلى تعدد أساليب وآلية تصويره، فكان رفض النظام الطبيعي والنسق المألوف للأشكال من أهم الخصائص التي ميزت الغروتسك في القرن السادس عشر مثلاً، حيث استعمل في الفنون التشكيلية للإشارة الى اللوحات المشوهة المعالم والعجائبية والمنفرة مثل لوحة امرأة عجوز غروتسكية للفنان الفلمنكي كوينتن ماسيس عام 1513م (الشكل 1)، تظهر امرأة عجوز ذميمة الوجه بلباس فاخر تحمل بيدها برعم ورد صغير يشير إلى أن هناك محاولة للتصابي وإحياء الشباب، وهنا

نستذكر –نقلاً عن غريتشن – ما كتبه إيراسموس مستلهماً هوراس في (مديح الجنون) (1509–1511م):

"من الممتع أكثر رؤية النساء العجائز اللواتي....يشبهن الجثث...بوجوههن الملطخة بالأصباغ... وهن يكشفن عن أثدائهن المترهلة الذاوية ويحاولن استثارة رغبات خائبة" (هندرسن، 2020/2015، 58).

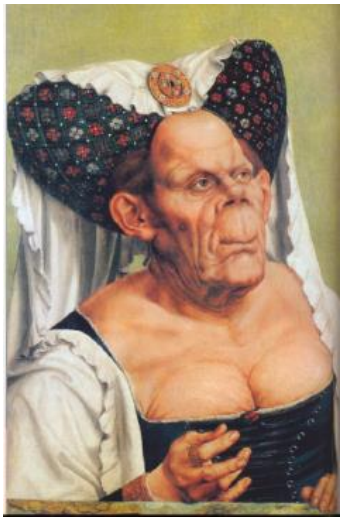

الشكل(1) كوينتن ماسيس، امراة عجوز غروتسكية، 1525–30م، لندن، المتحف الوطني

وفي الأدب تعتبر قصيدة بالدوس (Baldus) التي كتبها فولينغو Teofilo Folengo تحت الاسم المستعار Merlin Coccai عام (1517) مجموعة خيالية لجميع أشكال القبح الشيطاني حيث أنها قصيدة بطولية هزلية غروتسكية، وهي محاكاة ساخرة لكوميديا دانتي[1] وسابقة لرواية (غارغانتوا Gargantua) لرابليه[2]" (Eco, 2007, 100).

كذلك الأمر في القرن السابع عشر فقد أصبح للغروتسك وجوداً متميزاً وشائعاً في الأدب، حيث العناصر الغروتسكية ممزوجة بين الأشكال الساخرة والأشكال الجادة بالإضافة الى الغرابة والصور المظلمة كما وردت في أعمال شكسبير[3] وثيربانتس[4] وغيرهم.

وحتى القرن التاسع عشر تطور مفهوم الغروتسك ليدل على مظاهر منافية للعقل حيث ارتبط بحكم دلالته الأصلية بالتجسيد أي "لكل أنواع التشويه الجسماني مثل: الكائنات الحيوانية، والأشكال التي تتمفصل بين حدود ما هو عضوي ولا عضوي، وشذوذات التشويه الجسماني مثل: الأقزام والعمالقة والحدبات..الخ" (المنيعي، 1996، 105– 106).

كما نجد تأثيره من خلال الرموز والدلالات والشعارات بأسلوب يسوده الخيال والفوضى والهلوسة، مقتحماً مجال الكتابة الأدبية والفنية والتيار الجديد الذي يبتعد عن الواقعي والنمطي والرافض للأشكال التقليدية بخاصة.

وفي القرن العشرين انتشر الغروتسك في كل ميادين المعرفة والحياة "إذ نجده في كل الفنون من تصوير ونحت وعمارة وغيرها وكل الأجناس الأدبية في الشعر السيريالي مثلاً، وعلى الخصوص في المسرح" (المنيعي، 1996، 107)، إنه يهدف إلى تصوير العالم في غرابته مما يجعلنا نرى العالم الحقيقي من منظور جديد، فقد اتجهت التحولات الفكرية والفنية باتجاه الحداثة من خلال تشكيلات غروتسكية بأبعاد فلسفية مختلفة، وتم طرح الغروتسك بأساليب الفنانين المتعددة ولغايات مختلفة عما سبق، "فالقبح الغروتسكي لعبة شكلية أو صورية فنية عبثية، حيث أن الفنان يلعب هازلاً ومذعوراً مع سخافات الوجود الأساسية" (الرويلي والبازغي، 2007، 203).

نذكر مثالاً عمل النقش البارز (موت متخم) (الشكل 2) للفنان (ليونارد باسكين Leonard Paskin) إنه صورة تعبيرية عن

[1] دانتي أليجيري 1265–1321 Dante Alighieri شاعر إيطالي مؤلف الملحمة الشعرية "الكوميديا الإلهية".

[2] فرانسوا رابليه François Rabelais (1494–1553) كاتب فرنسي.

[3] شكسبير 1564–1616 William Shakespeare شاعر وكاتب مسرحي انكليزي.

[4] ثيربانتس 1547–1616 Miguel de Cervantes Saavedra كاتب اسباني صاحب رواية الدونكيشوت Don Quixote.

الموت حيث نلاحظ أنه ذو طابع تراجيدي ومأساوي ممثَّل بصورة مليئة باليأس والحزن، إلا أن الفنان عمد إيصال فكرته إلينا من خلال هذا المظهر المتوحش بشكل فكاهي وهزلي من خلال الأرجل النحيلة الطويلة التي تحمل الجسد البدين، وتبدو هزيلة ومرهقة وهو مظهر متعمّد وكأنه سخرية القدر، "بمنحنياته المتعرجة وشكله الغريب، انعدام الرقبة والذراعين بالإضافة لوجه الخنزير، كل هذا يجعله يتصف بالغموض والتنافر وهذا ما نطلق عليه اسم الغروتسك" (Wentinck, (n.d.), 155)).

الشكل (2) ليوناردباسكين، موت متخم، 1958، برونز، صالة بورجينيشت ، نيويورك

إذاً الغروتسك ليس له نمط واحد ثابت ويختلف باختلاف مجموعة من الاعتبارات، فقد تغير مفهومه من الدلالة على السخرية والغرابة والتطرف والشذوذ في عصر النهضة إلى المنافي للعقل والمنطق وإثارة الرعب والفوضى والعبث ومختلف مظاهر الوهم والخيال والجنون والابتعاد عن الواقعي والنمطي فيما بعد. لقد تناول المنظّر الروسي ميخائيل باختين (1895–1975) M.Bakhtine مفهوم الغروتسك وتطوره بنظرة شمولية تطال الحياة والفن والأدب وذلك في كتاباته عن الرواية، وعلى الأخص كتابي (رابليه) و (دوستويفسكي)، فـ "الجسد الغروتسكي حسب باختن ليس منظومة مغلقة، بل ينفتح باستمرار ويعبث بالفئات لذلك لا تنجح التعاريف الصارمة للقبيح والمصطلحات المرتبطة به بتأسيس صورة نمطية لذلك الجسد" (هندرسن، 2020/2015، ص92).

ب– خصائص الغروتسك

وفق ما سبق نستطيع أن نستنتج بعض الخصائص التي تميز الغروتسك في الأعمال الفنية:

– التباين والتناقض من خلال ربط الأضداد: ففي الأدب نلاحظ التناقض من خلال تجسيد شخصيات وضيعة ومضحكة مثل الخادم والمهرج والتي نراها تلازم الشخصيات الرفيعة وتناقضها كالملك لير والمجنون في مسرحية شكسبير، وفي الأعمال الفنية من رسم ونحت يظهر التناقض من خلال التهجين، أي المزج والتركيب بين عدة عناصر ذات طبيعة مختلفة، وهو حاضر بامتياز في الظهور الأول للغروتسك، حيث تصوير أشكال مختلطة بين البشرية والحيوانية والنباتية بتوليفة لا تخضع لقواعد الممكن بل وتشذّ عنها، "ومن بين أشكال التهجين الغروتسكي الجمع بين النقيضين، إنه يخلط عن قصد بين مختلف المتناقضات ليجعلها بشذوذه الخاص في وحدة شاذة عنيفة" (Thomson, 1972, 142).

– النشاز وعدم التناسق: وذلك من خلال الإسراف في المبالغة المرتبطة بالخيال المفرط وغير الواقعي وكل ما هو غير منتظم ويتصف بالغرائبية أي المظاهر المنافية للعقل، والتي تؤدي إلى أشكال ناشزة ومنفرة.

– الهزلي والمرعب: وذلك من خلال التشويه الخارج عن المألوف كالمسخ مثلاً وشذوذات التشويه الجسماني مثل العملقة والتقزيم لكل الجسد او لعضو من أعضاءه مما يؤدي

الى شكل مضحك هزلي او شكل مرعب أي كل ما هو يعبر عن الاختلاف الشاذ.

ج– فن النحت في العصور الوسطى

تتميز فنون العصور الوسطى والفن المسيحي خاصة في أوروبا بجمالية رمزية لها خصوصيتها وتفردها، فقد كانت هذه الفنون تعبيراً روحياً غايته إرضاء الشعور الديني بعيداً عن الماديات الزائلة، قائمة على التنزه والتعالي لذلك كان لا بد من التمثيل الرمزي في الفن، ذلك "لأن الرمز قادر على التعبير عما هو غير ملموس أكثر من قدرته على تمثيل ما هو ملموس. وبهذا أصبح الجوهر المرئي ثانوياً ويلي في الأهمية الجوهر الروحي الذي لا يمكن تصويره إلا في عالم الخيال، وعسير أن يقع المرء على نماذجه في عالم الطبيعة الواقعي" (عكاشة، 2013، 33).

وقد جُرّدت الأجساد من ليونتها وتم تبسيطها حاملة رموزها الروحانية، وذلك للابتعاد عن صور الوثنية التي تحبّب الناس في الحياة الدنيا ولذائذها كما كانت في النحت اليوناني والروماني حيث صُورت الآلهة في شكل البشر وبهيئة ماجنة في أغلب الأحيان من حيث تحقيق اللذة والمتعة والأهواء، وهو اتجاه يتعارض مع دعوة الكنيسة نحو التقشف والبساطة والزهد، وقد أدى هذا في بداية الأمر إلى تأخر فن النحت عما كان عليه في العصور السابقة، وذلك لكره هذه الديانة السماوية لأوثان العهد البائد، مثل الفن البيزنطي الذي اتجه في النحت نحو الاقتصار على الأشكال الهندسية والوحدات النباتية فقد "كان النحت البيزنطي في عهد جوستنيان متأثراً بالمفهوم العربي للفن؛ إذ ازداد الاهتمام بالرقش الذي تضمن إلى جانب العناصر النباتية صوراً حيوانية لطيور ومواشٍ وغزلان بعيداً عن الشكل الإنساني" (رحمة، 2022، 83)، ولكنه لم يخلو من التجسيد الإنساني في بعض مراحله مع انعدام الأوضاع الحركية، كذلك كان النحت الرومي أيضاً رمزياً ومحوراً له طابع زخرفي، كما تخلو تماثيل العصر الرومانسكي بوجه عام من عنصر الحيوية والحركة وتتصف بالجمود على الرغم مما فيها من قوة ومهارة، ولعل الفن الغوطي كان الأكثر تعبيراً عن روح الحيوية والدقة في محاكاة الطبيعة التي لم تبدأ بالظهور في أوربا في العصور الوسطى إلا في عهده.

وقد ارتبط فن النحت بشكل خاص ارتباطاً وثيقاً بالهندسة المعمارية فكان هناك تركيزاً على استخدام تماثيل الأنبياء والقديسين بالإضافة إلى موضوعات من الكتب المقدسة لتغطية واجهات الكاتدرائيات.

وبالرغم من تجسيد الشخصيات الدينية بأقدس حالاتها إلا أن المظاهر الغريبة والأشكال العجائبية في فنون العصور الوسطى كان لها وجودها مثل تجسيد الشيطان بأبشع الصور بالإضافة إلى جهنم ومصير الكافرين وغير ذلك، ومن الملاحظ ظهور التماثيل الهزلية والخرافية بالإضافة إلى الوحوش الغريبة في فن النحت الرومانسكي خاصة عند تيجان وقواعد الأعمدة في الكنائس، وبالتتبع التاريخي نستطيع أن نقول أن أصل هذه الوحوش والأشكال الغرائبية يعود إلى المصادر التي استقى منها الفن الرومانسكي وخاصة من جراء غزوات البرابرة حيث كان لذلك الأثر الكبير في نتاج هذا الفن والفن الغوطي اللاحق فيما بعد، فقد "أخذ الفن الرومانسكي نماذجه من مصدرين، أولهما الأنسجة الشرقية بزخارفها الفارسية التي واصلت تقاليد فنون ما بين النهرين ذات سلسلة الشخوص الجامدة المبنية على تماثل رسوم الرنوك. وثانيهما صور خرافي الحيوان التي أدمجها البرابرة السكندنافيون والإيرلنديون في الديناميكية المدومة لتصميماتهم الفنية" (عكاشة، 2013، 28).

كما أن هناك المؤلفات القصصية الرمزية التي ظهرت خلال العصور الوسطى حيث يتم وصف الطيور والحيوانات فيها بالإضافة إلى المخلوقات الخرافية عن طريق صور إيضاحية والتي على ما يبدو كانت مصدراً استقى منه فن الكنائس

الرومانسكي، "وثمة جملة من الجامات[5] الاخرى تصوّر وحوشاً غريبة مقتبسة من كتب الحيوانيات الأخلاقية الرامزة الشائعة وقتذاك التي تروي الأقاصيص عن حيوانات حقيقية وخرافية" (عكاشة، 2013، 60). كما أن بعض النقوش البارزة على تيجان الأعمدة أو حتى الحشوات وخاصة تلك الموجودة في كنيسة المادلين تدين بأصولها للرسوم والمنمنمات المرقنة للأناجيل في مكتبات الأديرة والتي كان الرهبان يعرضونها على النحاتين لتنفيذها على الحجر.

لقد امتد هذا الأثر أيضاً إلى الفن الغوطي فبالرغم من أنه كان "أكثر هدوءاً وروعة وإنسانية مقارنة بالنحت الرومانسكي الذي تميز بالعنف والدراما والتجريد" (رحمة، 2022، 166)، إلا أن هناك العديد من الأعمال النحتية التي جسدت الوحوش والمخلوقات الغريبة وغيرها مما يندرج تحت تسمية الغروتسك، وهذا ما سوف نراه في العديد من التماثيل والنقوش البارزة في كاتدرائية شارتر.

د- الغروتسك في منحوتات كاتدرائية شارتر:

تعتبر كاتدرائية شارتر (Chartres Cathedral) من أولى الكارتدرائيات الغوطية التي بُنيت في فرنسا خلال القرن الثاني عشر، وتعد من أروع أمثلة الطراز المعماري الغوطي وأغناها، فهي تتميز بتصميماتها المعمارية والفنية الرائعة وبالنوافذ البديعة ذات الزجاج المعشق الملون، بالإضافة إلى العدد الوفير من التماثيل والنحت البارز، ومن الجدير بالذكر أنها تكاد تخلو من الداخل من أية منحوتات باستثناء التيجان ذات الزخارف النباتية وستار قاعة المرتلين البديع الذي أضيف في عصر النهضة، فقد تقصّد معماريو القرون الوسطى التركيز على وضع التماثيل في الخارج وحسب، حيث أن هناك ما يقارب على أكثر من ألفي شكل منحوت خارج الكاتدرائية موزع بانتظام بين الواجهة الغربية وبَهوي المدخل الشمالي والجنوبي للقاعات العرضية.

ففي الواجهة الشمالية يظهر العهد القديم حيث نرى تكوينات نحتية تجسد حياة السيدة مريم مثل مشاهد البشارة وميلاد المسيح وطفولته ذلك حتى رقادها وتتويجها ملكة للسماء، وقد تضمنت الواجهة الملكية الغربية أعمالاً نحتية تحكي قصة السيد المسيح منذ أسلافه وحتى صعوده إلى السماء، في حين يتمحور بهو المدخل الجنوبي حول الدينونة الأخيرة ويستكمل قصة فداء البشرية منتقلاً إلى العهد الجديد، الذي يتجسد في قصة الكنيسة وقديسيها ورؤساء الأديرة وأساقفتها، منتهياً بلوحة يوم الحساب وبعث الموتى من قبورهم.

وبهذا تعتبر شارتر سجّلاً مرئياً كاملاً لفكر العصور الوسطى، فقد تضمنت أعمالها الفنية مشاهد من الانجيل والأساطير المتوارثة عن حياة القديسين بالإضافة إلى الأمراء والتجار والمنحوتات التي تصور المهن وأوقات السنة والأبراج الفلكية وغير ذلك من التماثيل التي ترمز للفنون والفضائل والرذائل.

وإلى جانب تماثيل القديسين والملائكة نرى مخلوقات غريبة كالمخلوقات الخرافية والجرغولات بالإضافة الى المخلوقات التي تمثل الشرّ كالشياطين والوحوش، ومن الملاحظ أن جميع هذه المخلوقات لها صفات الغروتسك وهذا ما سيتضح لنا من خلال دراسة وتحليل بعض النماذج النحتية منها.

نستطيع تقسيم هذه المخلوقات إلى عدة أنواع كالتالي: المخلوقات الأسطورية، الشياطين والوحوش، الجرغولات.

- المخلوقات الأسطورية:

نلاحظ وجود بعض التكوينات النحتية للمخلوقات الخرافية التي تجسد أسطورة أو رمزاً معيناً، فمثلاً على البوابة الملكية (الشكل3) تضم حشوة العقد الوسطى السيد المسيح يحيط به مجموعة من المخلوقات كالثور والأسد المجنحين بالإضافة إلى إنسان مجنح ونسر، لقد ارتبط مضمون هذا العمل مع موضوع الأساطير القديمة عبر تجسيد الأشكال الخرافية غير الموجودة

[5] Medallion جامة مستديرة. رصيعة مستديرة، وهي لوحة دائرية أو مفصصة ذات نقوش نافرة عادة ما تؤدي وظيفة زخرفية فوق المبنى.

في الواقع والتي ترمز لأصحاب الأناجيل الأربعة وهي كالتالي "الإنسان المجنّح رمز متَّى الرسول والأسد المجنّح رمز مرقص الرسول، والثور المجنّح رمز لوقا الرسول والنسر رمز يوحنا الرسول" (عكاشة، 2013، 185).

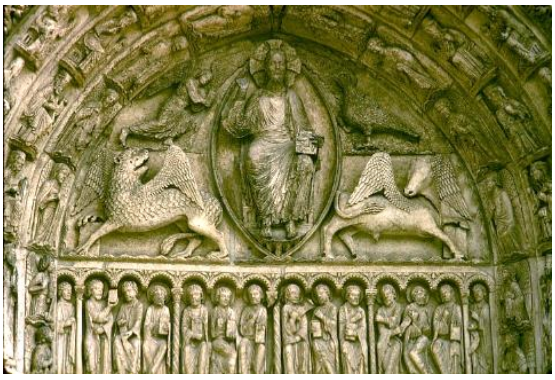

الشكل (3) كاتدرائية شارتر، البوابة الملكية، حشوة العقد الوسطى، المسيح في جلاله تحيط به رموز أصحاب الأناجيل الأربعة، نقش بارز، حجر

يظهر الغروتسك هنا من خلال التهجين الذي يعتبر أحد خصائصه والذي يجمع بين سلالتين مختلفتين أو كائنين مختلفين، حيث نلاحظ هنا الجمع بين أجنحة الحيوانات الطائرة مع جسد حيوان بري كالثور والأسد، (الشكلان 4 و5). لا شك أن الأجنحة هنا ترمز للقداسة وهذا يذكرنا بتماثيل الآلهة في العصور القديمة، إلا أن هذا لا ينفي صفة الغروتسك فيها بوصفه يحمل دلالة ثقافية ارتبط بالأساطير والمخلوقات المركبة الهجينة، من خلال الرموز التي تحمل عقيدة دينية.

الشكل (4) الثور المجنح، تفصيل من البوابة الملكية، نقش بارز، حجر

الشكل(5) الأسد المجنح، تفصيل من البوابة الملكية، نقش بارز، حجر

الشياطين والوحوش:

اختصت بوابات المدخل الجنوبي بتصوير الدينونة الأخيرة ويوم الحساب وبالتالي يظهر الشهداء والمخلَّصين بالإضافة إلى الملعونين الذين تظهر أشكالهم متعبة وخائفة وقبيحة كقبح أفعالهم الشنيعة، وبأجساد عارية متراصة فوق بعضها كدليل على هول العذاب الذي ينتظرهم وخاصة أن الجسد العاري في العصور الوسطى كان له دلالات الخزي والعار كما في (الشكل 6)، إن هذه التركيبة بين الأشكال المتوحشة والوجوه الباسمة بالرغم من هول الكارثة في هذا المشهد الهزلي يعتبر من خصائص الغروتسك.

الشكل (6) تفصيل من الجانب الأيمن من القوصرة المركزية في البوابة الجنوبية، مشهد للملعونين

كما أنه من الملفت انتشار مخلوقات غريبة وقبيحة على الجهة اليمنى من المدخل هي الشياطين التي تقوم بأفعال سيئة وشريرة وتحيط بالناس من كل صوب (الشكل 7)، فقد اختلفت المشاهد بين إغراء الناس بالحياة الدنيا وملذاتها وبين خطف الأرواح أو حتى المؤمنين كالراهبات مثلاً كما في (الشكل 8) حيث نرى شيطاناً بهيئة مخيفة يلف بيديه راهبة تبدو حزينة وخائفة، الصورة الرمزية هنا تجسد أفعال الشيطان الشنيعة التي تطال حتى المؤمنين وتوسوس لهم للانحراف عن إيمانهم.

الشكل (7) الوحوش والشياطين تغري المسيحيين – البوابة الجنوبية لكاتدرائية شارتر

الشكل (8) الشيطان يخطف راهبة، القرن الثالث عشر الميلادي، كاتدرائية شارتر، البوابة الجنوبية

هذه الشياطين تظهر بوجوه قبيحة ومنفرة حيث العيون الجاحظة والأسنان الكبيرة المخيفة وأجساد ممسوخة أو مهجنة فمن الممكن أن يكون لها ذيل كالحيوانات أو حتى قرون أو آذان كبيرة كما في (الشكل 9) حيث يتوضح أيضاً وجود وجه مخيف في منطقة البطن، هذه التركيبة مع هذا المَسخ والقبح المتعمّد يعتبر من أهم خصائص الغروتسك، فلا بد للشياطين أن تمتلك هذه الصفات لأنها رمز للشر والأعمال السيئة، يقول إيكو (2007) في كتابه تارخ القبح "من الواضح أنه لا بد أن يكون الشيطان قبيحاً ربما يرجع ذلك للتقاليد الدينية" (92).

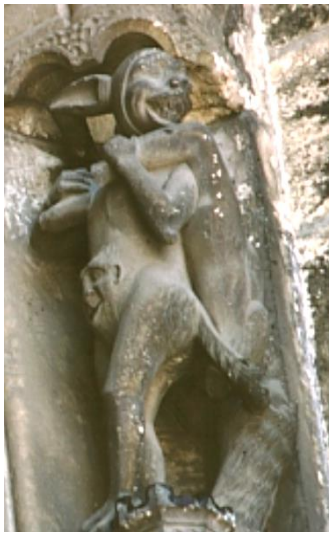

الشكل (9) كاتدرائية شارتر، الشيطان يخطف روحاً

كما نلاحظ بالإضافة إلى الشياطين انتشار العديد من الحيوانات الغريبة والخرافية التي تظهر بمظهر الوحوش وخاصة تحت أقدام تماثيل القديسين كما في (الشكل10) حيث نرى بوتيفار Potiphar الذي يمثل أحد شخصيات العهد القديم وتحت قدميه تمثال لزوجته وهي تستمع إلى مخلوق أسطوري مجنح يشبه التنين ويبدو عليه الخبث ربما يرمز للشيطان بطريقة أو بأخرى. أيضاً تحت قدمي تمثال القديس يوحنا حيوان يشبه التنين ينظر إلى الأعلى كما في (الشكل11)، من المعروف أن التنين حيوان أسطوري وأنه مهجّن وهذا يعطيه صفة الغروتسك.

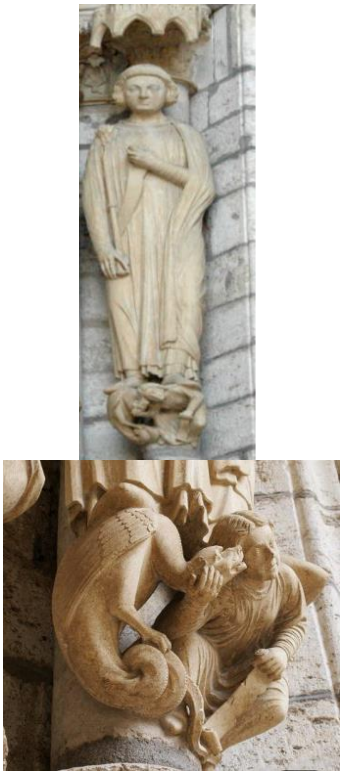

الشكل (10) يظهر هنا حيوان خرافي مجنح يبدو وكأنه تنين (زوجة بوتيفار Potiphar وهي تستمع الى الشيطان)

الشكل (11) القديس يوحنا المعمدان، الواجهة الشمالية – الجانب الأيمن، كاتدرائية شارتر، فرنسا

– الجرغولات:

تنتشر على الزوايا والمنافذ والقمم والجدران الخارجية للكاتدرائية مجموعة من المخلوقات التي تتخذ أشكالاً حيوانية مخيفة بهيئة قبيحة أو مهجنة وتشير المصادر إلى أن هذه الاشكال في الهندسة المعمارية تدعى (الجرغول Gargoyle)، ومصطلح جرغول بالانكليزية gargoyle و باللاتينية gargula و بالفرنسية gargouille وهو مشتق من الكلمة الفرنسية gorge والتي تعني الحلق، وهو مرتبط أيضاً بالفعل الفرنسي gargariser والذي يعني الغرغرة. وهو عبارة عن حجر منحوت، عادة ما يكون عبارة عن مزراب مصنوع من الجرانيت مع صنبور مصمم لنقل مياه الأمطار من السقف وبعيداً عن جانب المبنى، كما في (الشكل12).

الشكل (12) جرغول على شكل رأس قرد، الجدار الخارجي لكاتدرائية شارتر

وبالإضافة لوظيفة نقل المياه اعتبرت هذه المخلوقات بمثابة حماية للكنيسة وخاصة تلك التي تعتلي أسطح الكاتدرائية، لذلك نجدها بهذا الشكل المخيف لطرد الأرواح الشريرة عن هذا المكان المقدس، "هذه الاشكال الغروتسكية هي بمثابة حراسة وثنية للأوصياء المتواجدين داخل الكاتدرائيات" (Benton, 1997, 11).

ولما كانت الصور هي أفضل طريقة لنقل الأفكار باستمرار نظراً لكون معرفة القراءة والكتابة غير شائعة لدى العامة في ذلك العصر، لذلك غالباً ما استخدمت الجرغولات لمساعدة الكنيسة في نقل الرسائل لعامة الناس، فقد تم استخدام هذه

المخلوقات لإخافة الناس وحثّهم للمجيء الى الكنيسة وتذكيرهم بأن نهاية الأيام قريبة بالإضافة طبعاً لتماثيل الشياطين الآنفة الذكر. نلاحظ في الشكلين (13 و14) مجموعة من الجرغولات التي تعتلي السطح والأبراج وتبدو بهيئة حيوانات مخيفة.

الشكل (13) جرغول يتوضع على السطح ويبدو الماء المثلج يخرج من فمه

الشكل(14) جرغول على شكل نمر مجنح يتوضع على السطح

من الملاحظ أيضا وجود مخلوقات أخرى بأشكال غريبة أومخيفة متوزعة على جدران الكاتدرائية الخارجية لها وظيفة زخرفية فنية ولا علاقة لها بمجرى الماء، على الرغم من أن مجال الهندسة المعمارية عادة ما يحافظ على التمييز بينها وبين الجرغول إلا أنها تعتبر مرادفة له وتأخذ نفس التسمية وتتميز بأشكالها الناشزة والقبيحة. كما في (الشكل15)، ومن الممكن أن تكون حيوانات خرافية كالتنين مثلاً كما في (الشكل16)، وما يجمعها أن جميعها لها شكل مخيف أو منفّر.

الشكل (15) جرغول الكلب

الشكل (16) جرغول التنين

لم يقتصر وجود الجرغول على زوايا البناء أو متوزعاً على الجدران وإنما نلاحظ وجوده في البوابة اليسرى من الواجهة الغربية (البوابة الملكية) حيث توجد تكوينات نحتية تمثل الأبراج الفلكية وأشهر السنة، ومنها مخلوق يمثل برج العقرب (الشكل17) يبدو شكله مخيفاً بهذه العيون المحملقة وكأنه يحمل تفاصيل وجه إنسان بجسد عقرب، وعلى طول جسده يوجد زخرفة أعطت انطباعاً تاماً بأنه وضع لغرض التزيين

والزخرفة، إن شكله الخرافي وهيئته البشعة يعطيه صفة الغروتسك.

والجدير بالذكر أن مثل هذه النقوش تواجدت في كنيسة المادلين (مريم المجدلية) في العصر الرومنسكي فهناك نقوش نحتية عن أشهر السنة والأعمال التي يقوم بها الناس خلال الفصول، بالإضافة لرموز الأبراج "وفضلاً عن ارتباط الشهور بمثل هذه الأعمال فهي ترمز أيضاً إلى علامات دائرة البروج التي بدورها تذكر الإنسان بمدى قصر الحياة التي يجتازها قبل أن يظفر بالخلاص" (عكاشة، 2013، 58). وهذا ما تكلمنا عنه سابقاً في امتداد تأثير الفن الرومانسكي في الفن الغوطي وخاصة بتجسيد الوحوش والمخلوقات الغريبة.

الشكل (17) نحت برج العقرب فوق الباب الأيسر للمدخل الغربي (الملكي) لكاتدرائية شارتر في فرنسا

إذاً تشترك هذه المخلوقات الغريبة إن كانت مصممة لنقل المياه او للزخرفة بأنها ذات طابع غروتسكي، حيث "تضم بورتريهات الأمراء والتجار وتماثيل الملائكة التي تفيض وسامة وجمالاً إلى جوار أشكال المخلوقات الجروتسكية البشعة التي كانت تستخدم إما ميازيب للمياه أو عناصر زخرفية تنطلق من فوق كرانيش السقف أو تفاجئ الأعين متخفية هنا وهناك في مواضع غير متوقعة" (عكاشة، 2013، 189– 190)، وقد أكسبت البناء مشهداً مفعماً بالحيوية.

النتائج:

1– بعض الأعمال النحتية سواء كانت التماثيل أم النقوش البارزة، ولا سيما في كنائس العصور الوسطى تحمل الصفة الغروتسكية.

2– تختلف الغايات والدلالات من تجسيد الغروتسك في الأعمال الفنية باختلاف العصر والمجتمع والثقافة.

3– أغلب المنحوتات في العصور الوسطى والتي اتصفت بالغروتسكية لعبت دوراً وظيفياً، كما وكان للبعض الآخر دوراً تزيينياً او حتى توثيقياً.

4– ليس بالضرورة كل عمل نحتي كان له بعض خصائص الغروتسك أن يمثل الشر أو أن يكون منفراً ومرعباً، بل هناك بعض الأعمال النحتية الهجينة مثلاً تلك التي مثلت رموزاً دينية مقدسة.

5– تمتاز الأعمال الفنية التي تحمل خصائص الغروتسك سواء القديمة منها أوالحديثة بالابتعاد عن النمطية، وقد اتصفت هذه الأعمال بالغرائبية أو الهزلية من خلال التنافر والتضخيم والشذوذ والتباين والتناقض وغيرها مما يحقق التمرد على المألوف وعلى الجمال المثالي.

التمويل: هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

References

1- رحمة، سمير. (2021–2022). تاريخ الفن2 – فنون العصور الوسطى. دمشق: سورية. منشورات جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة

2- رويلي (ال)، ميجان، والبازغي، سعد. (2007). دليل الناقد الأدبي. ط:5. الدار البيضاء: المغرب. المركز الثقافي العربي.

3- عكاشة، ثروت، (2013). فنون العصور الوسطى، موسوعة تاريخ الفن. الجزء الثاني عشر. ط2، القاهرة: مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

4- منيعي (ال)، حسن. (1996). الجسد في المسرح. ط:1. مكناس: المغرب. مطبعة سندي.

- هندرسن، غ. (2020). التاريخ الثقافي للقباحة. ترجمة: رشا صادق. بيروت: لبنان. دار المدى.

1- Benton, j. R. (1997). Holy Terrors: Gargoyles on Medieval Buildings. New York: USA. press Abbeville. (janetta Rebold Benton)

2- Eco, U. (2007).On Ugliness. translated from the Italian by Alastair McEwen. London: UK. Harvill Secker. (Umberto Eco)

3- Meindl, Dieter (1996). American Fiction and the Metaphysics of the Grotesque. Dallas: USA. University of Missouri Press.

4- Thomson, Philip. (1972). The Grotesque (The critical idiom), London: UK.

5- Uruburu, Paula.M. (1987). The Gruesome Doorway: An Analysis of the American Grotesque. Bristol: England. Peter Lang Inc. International Academic Publishers.

6- Wentinck, Ch. (n.d.). The Human Figure. translated from the French by Eve Cooper., Weert: The Netherlands. Smeets Publishing Company. (Charles Wentinck)

– وهبة، مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1974م.

مراجع صور الأعمال الفنية حسب ورودها في النص بالتسلسل:

1- Eco, U. (2007). On Ugliness, translated from the Italian by Alastair McEwen, London: Harvill Secker, p172.

2- Wentinck, Ch. (n.d). The human figure. translated from the French: Eve Cooper. Weert :The Netherland. Smeets Publishing Company, p155.

3- https://homepages.bluffton.edu/~sullivanm/chartreswest/ctymp.jpg

4- https://homepages.bluffton.edu/~sullivanm/chartreswest/ctympox.jpg

5- https://homepages.bluffton.edu/~sullivanm/chartreswest/ctymplion.jpg

6- https://homepages.bluffton.edu/~sullivanm/chartressouth/clinel.jpg

7- https://richardnilsen.com/tag/chartres-cathedral/

8- Eco, U. (2007). On Ugliness, translated from the Italian by Alastair McEwen, London: Harvill Secker, p95.

9- عكاشة، ثروت، (2013). فنون العصور الوسطى، موسوعة تاريخ الفن، الجزء الثاني عشر. ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص195.

10- https://victorianweb.org/art/architecture/gothic/ruskin/chartres/gallery2.html

11- رحمة، سمير، (2019). القيم التشكيلية والرمزية في النحت القوطي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، 35 (1): 235–245.

12- https://pixels.com/featured/chartres-cathedral-gargoyle-drain-deborah-smolinske.html

13- https://digital.kenyon.edu/peregphotos/1341/

14- https://richardnilsen.com/tag/chartres-cathedral/

15- https://richardnilsen.com/tag/chartres-cathedral/

16- https://richardnilsen.com/tag/chartres-cathedral/

17- https://ascholarlyskater.com2016/04/24/gargoyle-of-the-day-chartres-cathedral-france/

1

2

3